الفصل الرابع عشر

عن الفلسفة، وعن الحرية، في القرن الحادي والعشرين(*)

البخاري حمانة(**)

ـ ١ ـ

كان أفلاطون (٤٢٧ ق. م.) أكثر حكمة، لا من الكثيرين من علماء ومن ساسة ومن فلاسفة عصره فحسب، بل من الكثيرين من العلماء والساسة والفلاسفة الذين جاؤوا من بعده، ومن ضمنهم العديد من علماء وساسة وفلاسفة عصرنا، حين طلب ـ في وقت كان فيه العديد من الفلاسفة ما يزالون علماء كذلك، والعديد من العلماء ما يزالون فلاسفة، وكانت فيه الفلسفة.. أم العلوم، كلّ العلوم ـ من الفلاسفة أن يكونوا علماء، ومن العلماء، وفي مقدمتهم علماء وقادة السياسة، أن يكونوا فلاسفة(١).

وأفلاطون لم يطالب بمثل هذا الارتباط، أو الربط، الضروري لكلّ من الساسة ومن العلم بالفلسفة، إلا لأنه أدرك ـ خاصة من خلال انحراف السفسطائيين بالفلسفة وبالمعرفة من مطلب الحقيقة نحو مطلب السّمعة والمجد، ثمّ من خلال أول صدام دموي بين الفلسفة والحرية، فوق أرض اليونان.. وهو الصدام الذي انتهى بقيام الأوليغارشيا الأثينية، بقيادة أنيتوس (Anytos).. وباسم

(*) نشرت هذه الدراسة ضمن ملف «فلسفة الحرية» في: **المستقبل العربي**، السنة ٣١، العدد ٣٥٩ (كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩)، ص ١٢٧ ـ ١٣٨.

(**) قسم الفلسفة، جامعة وهران ـ الجزائر.

(١) «Ménon, 86 - e- 87,» dans: Platon, *Les Oeuvres complètes*, trad. Robert Baccou et Emile Chambry, classiques garnier (Paris: Garnier, 1932), vol. 8.

الديمقراطية !! بإعدام أستاذه سقراط (٣٩٩ ق. م.) ـ أن كلاً من السياسة والعلم.. سلطة، وأن الضحية الأولى لأي تعارض بينهما.. وبين الفلسفة، كانت وستكون دوماً الحرية... في مختلف أشكالها ومعانيها.

ولأن الحرية، سواء أكانت فلسفية (أي حرية الإرادة)، أم سياسية (أي حرية القول والفعل)، إنما تعني انعدام أي إكراه خارجي للذات[٢]، فإنها تشكّل بالتالي جوهر الوجود الإنساني[٣] وروح روحه[٤]، والشرط الأوّل.. بالتالي لِكُلّ فعل إنساني مبدع وهادف إلى تجسيد وتجديد ذلك الوجود.

لذلك كان المساس بالحرية.. لا يعني فقط تجريد الإنسان من مثل ذلك الفعل، المعنوي والمادي الخلاق، والضروري لمثل ذلك التشكيل لوجوده[٥]، بل إنّه يعني كذلك، وبالتالي، تحويله إلى أداة مسخّرة لخدمة حرية ووجود غيره.

ولذلك أيضاً ارتبط تاريخ الإنسانية ومسارها ومصيرها فيه.. بكفاحها المعنوي.. والمادي من أجل الحرية، كما يلاحظ هيغل ذلك[٦].

ولا يغيّر من هذه الحقيقة التواجد المستمر، بالرغم من كلّ ذلك الكفاح من أجل الحرية، للطغيان وللطغاة، وللاستبداد وللمستبدين، بل إنّه يؤكّدها.. ويدعمها...، وذلك لسبب بسيط وهو أنّه لا حرية.. دون تحرر[٧].. ولا تحرر إلا من العوائق.. تماماً كما أنّه لا حديث بالتالي عن الديمقراطية، المجسّدة لمثل تلك الحرية، إلا من خلال الحديث عن السيطرة[٨].

ولأن الفلسفة تعني، وبدورها، من بين ما تعني، المعرفة الحرة، «والمحررة للإنسان»[٩]، وصولاً إلى تمكينه من مثل تلك الحرية الضرورية لتحقيق كمال وجوده، وذلك من خلال تعليمها إياه الكيفية، أو الكيفيات، التي تمكّنه من التحكم في ذاته وفي محيطه، الإنساني والطبيعي، على حدّ سواء، ومن تجاوز إكراهاتهما المختلفة، فإنها كانت.. وما تزال، خاصة في العالم المتقدم، وهذا منذ

---

(٢) انظر: زكريا إبراهيم، **مشكلة الحرية**، مشكلات فلسفية (القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٥٨).

(٣) Jean-Paul Sartre, *Existentialisme est un humanisme* (Paris: Nagel, [n. d.]), pp. 26-27.

(٤) Gabriel Marcel, *Du refus à l'invocation*, collection esprit, 4ème éd. (Paris: Gallimard, 1940).

(٥) Jean-Paul Sartre, *L'Etre et le néant* (Paris: Gallimard, 1940), p. 639.

(٦) G.W.F. Hegel, *La Raison dans l'histoire*, col. 10/18 (Paris: Plon, 1965), p. 19.

(٧) L. Lavelle, *La Puissance du Moi* (Paris: Aubier, 1948), pp.130-131.

(٨) Hannah Arendt, *Condition de l'homme moderne* (Paris: Calmann-Lévy, 1961), pp. 40-41.

(٩) «La Philosophie et l'emancipation de l'humanité,» *Unesco*, vol. 4 (2004), p. 39.

سقراط، إن لم يكن قبله، وإلى اليوم، في مقدمة كلّ معارك الحرية، دينية كانت أو سياسية، أخلاقية كانت أو اجتماعية.

ولا غرابة في ذلك، فالفلسفة التي يتمثل جوهرها، فيما يرى أفلاطون، في الخير والحق والجمال، لا يمكنها أن تجسد مثل ذلك الجوهر، إلا من خلال الفعل الحر.. وهو الفعل الذي لا يمكن أن يكون، فيما يؤكّد أفلوطين (Plotin)، إلا خيراً وعادلاً.. وجميلاً[١٠].

ولا يغيّر من هذه الحقيقة كذلك تلك المواقف التي تبدو معارضة للحرية، التي وقفها، لا البعض من رموز الأيديولوجيات الكليانية (Les Idéologies totalitaires)[١١]، القديمة منها والحديثة، فحسب، بل العديد من الفلاسفة القدماء والمحدثين، وذلك من أمثال أفلاطون نفسه (الذي اعتبر من خلال جمهوريته الكليانية والعرقية والمغلقة، الديمقراطية أسوأ نظام للحكم)، وهوبز[١٢] ونيتشه[١٣] وكارل ماركس[١٤].. بل.. وهايدغر.. وميشيل فوكو.. وحتّى الألماني بيتر سلوتردیجك[١٥]، الخ، وذلك لسبب بسيط، وهو أن تلك المعارضة، لم تكن، فيما نعتقد، لمبدأ الحرية، بل لبعض مفاهيمها، تارة، ولبعض تبعاتها الإنسانية والأخلاقية تارة أخرى.

ـ ٢ ـ

إن هذه العلاقة التاريخية والجدلية بين الحرية والفلسفة هي التي جعلت كلّ حديث، خاصة في الغرب الأوروبي ومن لفّ لفه، عن الحرية حديثاً عن الفلسفة، وكل حديث عن الفلسفة حديثاً عن الحرية.

وتلك هي بعض جوانب الدرس الأفلاطوني حول العلاقة بين الحرية والفلسفة...

---

(١٠) Plotin, *Les Ennéades*, trad. Franc. E. Bréhier, vol. 2, f. 59 et vol. 3, f. 9-13.0

(١١) نشير في هذا الصدد إلى دعم أفلاطون لنظام (Denys)، والفارابي لسيف الدولة، وابن طفيل لأبي يعقوب المنصور، وفولتير (Voltaire) لفريدريك الثاني (Frederic II)، وكوجيف (A. Kojève) لسلازار (Salazar). وكارل شميدت (K. Shmidt) لهتلر (Hitler).

(١٢) Thomas Hobbes, *The English Works, vol. III (Leviathan)* ([1651]).

(١٣) Friedrich Nietzsche, *Ecce Homo*, trad. Franc H. Albert (Paris: Mercure de France, 1888).

(١٤) Karl Marx, *Misère de la Philosophie* (Diverses éditions).

(١٥) Peter Sloterdijk, *Règles pour le parc humain*, traduit de l'allemand par Olivier Mannoni (Paris: Ed. Mille et une nuit, 2000).

وإذا كان مثل هذا الدرس قد غاب، بشكل كبير، خاصة في العالم الإسلامي، بالأمس.. وفي العالم العربي والإسلامي اليوم، فإن ذلك راجع أساساً إلى التغييب المستمر، وباسم شعارات دينية ما أنزل الله بها من سلطان[١٦]، من طرف معظم الحكام المسلمين والعرب الذين تلوا عصر الخلافة الراشدة.. وحتّى اليوم، لِكُلّ من الحرية ومن الفلسفة، وهو التغييب الذي حوّل قضية الحرية، لا إلى قضية بين الإنسان.. والإنسان، بين حرية إنسانية وحرية إنسانية أخرى، بل بين حرية إلهية.. وبين حرية إنسانية... لم يبق عملياً منها، وبالتالي، سوى الشكل، مثلما حوّل الفلسفة في الكثير من الأحيان.. إلى مرادفة للزندقة والكفر (الشهروزي، ابن خلدون، إلخ).

وإذا كانت الأجيال الأخرى، خاصة الأوروبية والغربية منها، التي جاءت بعد أفلاطون، ومن ضمنها الأجيال الحديثة والمعاصرة، قد تجاوزت مثل هذه الإشكالية حول العلاقة بين الحرية الإنسانية والحرية الإلهية، فإن ذلك لم يمنعها مع ذلك من الوقوع، ومنذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، في وهم إمكانية تحقيق مثل تلك الحرية الإنسانية.. وتلك السعادة، وذلك التقدّم الواعد بهما، عن طريق السياسة، وعن طريق العلم، وبعيداً، لا عن الدين فحسب، بل عن الفلسفة، وعن تنظيراتها العقيمة والمجردة التي جعلتها تنشغل بتأمل العالم.. «متناسية أن المهم هو تغييره»[١٧]، كما زعم كارل ماركس ذلك، وكأنه يمكن في نظر هذا الأخير تغيير العالم دون تمثله وتأمله أولاً!

ولقد تمّ ذلك في وقت كان فيه العالم العربي والإسلامي، المتأثر، وبعمق، في نهضته (القرن ١٩) بالنهضة الأوروبية، قد بدأ يتناول، بنوع من الجدّ، ومن الجدّة، العديد من القضايا السياسية والدينية والعلمية، وفي مقدمتها قضية الحرية، من منظور حداثي غربي، حقاً، ولكنه منظور انتهى بالعديد من رموزه إلى تغليب أطروحة المستبد العادل على الأطروحات الأخرى المنادية... بالحرية، في مفهومها الغربي الحديث، وكأنه، يمكن للاستبداد أن يكون مصدراً للعدل وللعدالة؟

بذلك كانت أوروبا والغرب الحديثين والمعاصرين.. المسرح، والصانعين الأولين لتلك الثورات السياسية الحديثة المطالبة بالحرية... وذلك من خلال الثورة

---

(١٦) البخاري حمانة، «التراث السياسي العربي الإسلامي والديموقراطية،» **مجلة الحضارة الإسلامية** (وهران)، العدد ١١ (٢٠٠٤).

(١٧) Karl Marx, *Thèses sur Feuerbach* (1845) (Diverses éditions).

الفرنسية (١٧٨٩) التي جاءت ـ بعد الثورة الأمريكية (١٧٧٦) ـ رافعة، قولاً وعملاً، شعار حرية وكرامة.. وحقوق الإنسان الفرنسي خاصة، ثمّ حقوق الإنسان عامة، أياً كان مكانه أو جنسه أو لونه.. أو مكانته الاجتماعية.. كما أكد ذلك الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٩.

وبذلك أيضاً كانت، أوروبا الغربية نفسها، الحديثة والمعاصرة، هي الرافعة الأولى، كذلك، وفي الوقت نفسه، شعار الحداثة والعلم المادي.. والعقلانية الوضعية المفضيين إلى التقدّم اللامحدود، والمبشّرين بدخول الإنسانية عصر الرخاء، والسعادة، خاصة بعد نجاحها في السيطرة على الطبيعة، وبتواري الفلسفة بالتالي، نهائياً، مثلما توارت من قبل الأساطير والأديان، وكأن هذه الأخيرة لم تشكل.. دوماً بعداً أساسياً في الحياة الإنسانية!

هكذا نسيت مثل هذه الطروحات الغربية الأوروبية حول كلّ من السياسة ومن العلم.. ومن الفلسفة، أو تناست، تلك العلاقة الجدلية والتاريخية التي تربطهم جميعاً، وهي العلاقة التي جعلت من الفلسفة، وكما سبق أن أشرنا (وهذا منذ أفلاطون، وأرسطو، ومعبد الجهني (قتل سنة ٨٠ هـ)، والعلاف (ت ٢٣٥)، وجون لوك، وكانط، وروسو، والكواكبي (ت ١٩٠٢)، وسارتر، وتشومسكي إلخ..، وإلى اليوم)، المدافعة الأولى عن الحرية والمنظّرة الأولى لها وللتطورات التي عرفتها، وما تزال تعرفها إلى اليوم كذلك.

كما أنّها هي التي جعلت كذلك، ومنذ «طاليس» (٥٤٧ ق. م.) وحتّى ديكارت، وإسحق نيوتن (ت ١٧٢٧)[١٨] وأينشتاين (ت ١٩٥٥)[١٩] وغيرهم من العلماء أطرافاً فاعلة... ومجدّدة للفلسفة.

ـ ٣ ـ

لِكُلّ ذلك نفهم لماذا كان يجب على الإنسانية الانتظار قليلاً لتبدأ في الاكتشاف بأن تلك الثورات السياسية الأوروبية من أجل الحرية سرعان ما تحوّلت، وباسم الحرية، إلى غطاء لحملات استعمارية، استهدفت، ومن خلال الحروب النابوليونية، أولاً، العديد من البلدان الأوروبية.. ذاتها، ثمّ وباسم

(١٨) Isaac Newton, *Philosophiae naturalis principia mathematica* (London: [n. pb.], 1687).

(١٩) Albert Einstein, *Pourquoi la guerre correspondance entre Albert Einstein et Sigmund Freud* (Paris: L'Institut international de coopération intellectuelle, 1939).

«التحضير»، العديد من دول العالم الثالث، ومن ضمنها بلدان العالم العربي والإسلامي، التي كانت قد غرقت منذ قرون وقرون في الجمود الفكري.. والديني.. والاجتماعي... وفي الاستبداد السياسي الذي تولّد عنه.

إن الحقيقة نفسها تصدق على تجربة الإنسانية مع الديمقراطية الرأسمالية، وليدة تلك الثورات السياسية والعلمية، وهي التجربة التي انتهت بالشعوب الأوروبية الغربية، إلى العزوف اليوم عن تلك الديمقراطية.. نتيجة ارتباطها المتزايد بالإقطاع المالي وبأصحابه من روّاد العولمة، التي أفقدت تلك الشعوب، وغيرها، حرية الرأي والكلمة، وحوّلت حديث طبقاتها الشعبية عن الحرية وعن الديمقراطية إلى «عواء»[٢٠].

أما بالنسبة إلى العالم الثالث، ومن ضمنه العالم العربي والإسلامي، فإن العديد من بلدانه إذا كانت قد استعادت استقلالها السياسي من المستعمر الأوروبي، فإنها فقدت بعد ذلك حريتها السياسية على يد العديد من حكامها الذين لم يفعل معظمهم في النهاية سوى إغراقها أكثر فأكثر في الفقر والقهر، دافعين بذلك شبابها دفعاً، لا إلى الهجرة فحسب، بل إلى الإجرام والإرهاب والعنف...

من هنا محاولة القوى الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة، منذ أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، فرض الديمقراطية الغربية الرأسمالية عليها، بحجة اجتثاث جذور الإرهاب.. الذي ولّدته داخل تلك البلدان نظمها الوطنية الاستبدادية تلك.

ـ ٤ ـ

ضمن هذا المنظور يدخل «المشروع الأمريكي حول الشرق الأوسط الكبير» الذي تحوّل إلى غطاء للاجتياح العسكري للبعض من بلدانه (أفغانستان ـ العراق)، وللسيطرة على ثرواته، البترولية خاصة، وإلى التهديد بالمصير نفسه للبعض الآخر (سورية وإيران.. الخ).

وضمنه كذلك تحول حديث العديد من الحكّام العرب والمسلمين عن الديمقراطية إلى هراء[٢١]. ولقد تمّ ذلك في وقت كانت فيه الإنسانية (التي

---

(٢٠) Charles Wright Mills, *The Power Elite* (New York: Oxford University Press, 1950).

(٢١) البخاري حمانة، «الزمان الاجتماعي العربي والديموقراطية،» ورقة قدمت إلى: الندوة الفلسفية العربية الثانية، عمّان، ٢٠٠٠.

ظلت تشق، وبالرغم من كلّ أهوال الحربين العالميتين ومن مأساة كلّ من هيروشيما وناغازاكي..، في تلك العلمانية وفي تلك التكنولوجيا، وفي وعودهما المبشرة بالتقدّم وبالتطور اللامحدودين)، قد اقتنعت نهائياً، خاصة بعد الانهيار، شبه الكامل، الذي أصاب العديد من قوانين وقناعات وحتميات.. وأهداف تلك العلمانية، وتلك العقلانية، وتلك التكنولوجيا.. المجسدة لها، والذي أغرقها في اللايقين وفي الفوضى» (Le Désordre) والاحتمالية، بأن العلم لم يعد نوراً فقط.. بل أصبح ظلاماً كذلك[٢٢]، وأن تقدّمه لا يعني حتماً تقدّم الإنسان، وأن التكنولوجيا لم تحررها من عبودية الطبيعة وعوائقها، إلا لكي تضعها تحت عبودية آليتها وآلاتها، والمبدعين لها.. وهم اليوم الأمريكيون بالدرجة الأولى.

فالثورة الفيزيائية (التي ما تزال الولايات المتحدة الأمريكية من أبرز روّادها، وهذا منذ قنبلتي هيروشيما وناغازاكي، التي أنهت عملياً الحرب العالمية الثانية بالأمس، وانتهاء بتصدّرها لغزو الفضاء اليوم).. التي مكّنت الإنسان من التحكّم في الطبيعة، ومن اكتشاف عوالم جديدة، ومن ابتكار طاقات جديدة.. وغير معهودة، وجعلت بالتالي حياته أقل عناء وأكثر رفاهية وسعادة، ماديتين، هي الثورة نفسها التي ما تزال تهدده، بتدمير ذاته وعالمه، وذلك من خلال أسلحة الدمار الشامل.. وتلويث البيئة... الخ... وما أديا إليه من احتباس حراري، ومن مساس بطبقة الأوزون، ومن تزايد الكوارث الطبيعية.. والأمراض، خاصة الجلدية والتنفسية..[٢٣].

والثورة البيولوجية، التي تعدّ الولايات المتحدة الأمريكية واحدة من أبرز روّادها كذلك، خاصة منذ الثمانينيّات من القرن الماضي، إذا كانت قد قوّت، وبدورها من قدرة الإنسان على الإنجاب، ومكّنته من القضاء على الكثير من أشكال العقم، ومن التحديد الإرادي لجنس الأطفال، بل للون عيونهم... ومن الكشف المبكر عن الأمراض التي يمكن أن يصابوا بها.. ومن الحصول على أجنّة تحت الطلب، وخارج الرحم... دون آباء.. بل دون علاقات جنسية أو عاطفية للمرأة مع الرجل، ومن الاحتفاظ، عن طريق بنوك الأجنّة.. بالحيوانات المنوية.. وتخزينها.. ومن استعمالها.. حتّى بعد وفاة أصحابها.. ومن علاج

---

(٢٢) Edgar Morin, *La Méthode*, 4 vols. (Paris: Seuil, 1991).

(٢٣) Brune Rebelle, *La Terre n'est pas à vendre: Entretien avec Philippe Demenet*, société (Paris: Desclée de Brouwer, 2002).

الكثير من الأمراض المستعصية.. الخ.. هذه الثورة البيولوجية.. وما تتضمنه من سلطة تلتقي في أكثر من موضوع.. مع السلطة السياسية[٢٤]، هي التي قلبت.. مفاهيم الأمومة والأبوة والقرابة وما يترتب عنها من قضايا دينية ونفسية وقانونية وأخلاقية... الخ[٢٥]، كما إنّها هي التي تتهدّد كذلك، ومن خلال الاستنساخ الإيجابي (Le Clonage positif) منه خاصة، ومن خلال التلاعب بالمجين البشري (Le Génôme humain)، وبالأسس الحيوية التي تقوم عليها إرادة وحرية وكرامة الأفراد والمجتمعات، بالتحول إلى أداة جديدة وغير مسبوقة للسيطرة وللاستعباد[٢٦]، وللقرصنة البيولوجية.. ممثلة في تبديد طبيعة المعرفة[٢٧].

والثورة الاتّصالية والإعلامية، التي أكدت الولايات المتحدة الأمريكية، مرة أخرى، ومن جديد، خاصة في أثناء الملتقى الدولي الثاني لمجتمع الإعلام في تونس (تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥)، رفضها... التخلي عن ريادتها وعن احتكارها، إذا كانت قد حوّلت العالم إلى قرية صغيرة.. ومتصلة.. وقرّبت، عن طريق الصوت والصورة، كلّ إنسان من كلّ إنسان، بعد أن قلّصت المسافات الزمانية والمكانية.. التي كانت تفصل بينهم... وإذا كانت قد دعمت حرية الصحافة. وسيولة الإعلام، ويسّرت كذلك من عمليات الإبداع والتنوع الثقافي... إضافة إلى دورها في تحسين الأداء التعليمي والتكويني.. والإداري، والتطبيب عن بعد (La Télémédecine) وتنظيم العمل عن بعد، بما في ذلك العمل المنزلي، الخ... فإنها هي الثورة نفسها التي تحولت... إلى أخطر سلاح، لامادي.. سلاح حول تلك الصور والأصوات التي كانت تحيي وتقرب إلى صور... وإلى... أصوات تبعد.. وتقتل[٢٨].

ذلك ما تؤكده على أيّ حال، من بين ما تؤكده، لا فقط الحرب الإلكترونية... ذات «الصفر ضحايا»، كما يدّعون! ؟ بل تؤكده كذلك عمليات

---

(٢٤) Francis Fukuyama, *Our Posthuman Future: Consequences of the Biotechnology Revolution* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2002), chaps. 2-3.

(٢٥) Hammana Boukhari, «Bio-ethique et défis Scientifiques,» papier présenté à: *Actes du XXIX^{ème} Congrès de l'ASPLF, Nice, France*, édit. J. Vrin (Paris: [s. n.], 2004).

(٢٦) G. Habermas, dans: *Philosophie, science et éthique* (UNESCO), vol. 8 (2002), p. 65.

(٢٧) Vandana Shiva, *La Biopiraterie ou le pillage de la nature et de la connaissance*, trad. de l'anglais par Denise Luccioni, ethique et enquête (Paris: Alias, 2002).

(٢٨) M. M. Lana, «Information Globalisée et Violence,» papier présenté à: Actes du Colloque de l'ONDH, Alger, 1997, p. 127.

التجسس على الحياة الداخلية للأفراد، والقرصنة الإلكترونية، وسرقة المعلومات المختلفة والتجسس على الحياة الفردية والسيطرة الإعلامية وتزييف الأخبار وإفشاء ثقافة العنف.. والجنس، خاصة لدى الأطفال[٢٩].

يضاف إلى كلّ ذلك الدور الذي تلعبه هذه الثورة الاتّصالية، مثل غيرها من تلك الثورات الفيزيائية والبيولوجية، في تعميق الهوة العلمية.. والاقتصادية.. والإعلامية.. الخ... بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة.

ـ ٥ ـ

إن هذه الحقائق، وغيرها، حول تلك الثورات العلمية التي تزداد كلّ يوم ارتباطاً بالعولمة، هي التي كانت، وما تزال، وراء تلك الاهتزازات التي يعرفها اليوم العلم ومفاهيمه وحقائقه.. ويقينياته.. ونتائجه.. ووراء الفوضى (Le Désordre) والعمى (Le Cahos) اللذين غرقت فيهما المعرفة الإنسانية بصورة عامة، كما أنّها هي التي حوّلت «الكارثة (La Catastrophe) إلى الوجه الآخر للتقدّم»[٣٠]، وهكذا فإن الإنسان حين وصل إلى قمة اجتهاده التاريخي، تبادرت إلى الأفق خسارة كلّ شيء[٣١].

من هنا تلك النزعات الشكّية واللاعقلانية... والعبثية والعدمية والذاتية... التي انتهت بالإنسان الأوروبي والغربي عامة، إلى اللامبالاة... وإلى الشذوذ.. والقلق والاستهلاك الأعمى والملل.. وإلى التشبث بالخيال... وإلى إفراغ حياته من كلّ معنى.

ولأنه لا انفصال، وكما سبق أن أشرنا، بين سلطة العلم وسلطة السياسة... فإننا نفهم بالتالي أن التقدّم العلمي، الذي تتزعمه اليوم.. الولايات المتحدة الأمريكية، إذا كان قد أدى إلى تواري العديد من الأيديولوجيات السياسية، خاصة الاشتراكية منها، وإلى سقوط حائط برلين عام ١٩٨٩، وتفكك المعسكر الاشتراكي، فإنه هو الذي أفرز كذلك، وفي الوقت نفسه، أيديولوجيات العولمة

---

(٢٩) Boukhari Hammana, «Violence et Nouvelles Technologies de l'information et de la communication,» (Publication Université d'Oran, semaine scientifique, avril 2004).

(٣٠) H. Arendt, dans: Paul Virilio, *L'Accident originel*, collection l'éspace critique (Paris: Galilée, 2005).

(٣١) Erich Fromm, *Avoir ou être?*, traduit de l'américain par Théo Carlier, réponses (Paris: R. Laffont, 1978).

ونهاية التاريخ[٣٢] وصراع الحضارات[٣٣]، وتزايد الفقر.. والتعصب، ضدّ العالم الثالث عامة، وضد العالم العربي والإسلامي خاصة، الذي نلاحظ أنّه قد تحوّل بعد تفكك المعسكر الاشتراكي، في نظر الغرب الرأسمالي، إلى العدو الأوّل.

وبذلك أيضاً نفهم لماذا فقد التقدّم، العلمي منه والسياسي على حدّ سواء، مضمونه الإنساني، وكيف تحوّل العقل من مصدر للحكمة وللتعقل، إلى أداة لأكبر الأفعال الجنونية، وللشذوذ ولأخطر الأوهام.. والعلم من مصدر للنور والخير إلى أداة للظلام.. وللظلم وللقوة المدمرة وللهمجية الجديدة والعمياء[٣٤]، والديمقراطية من منتجة تاريخية للمجتمعات إلى أداة لإفراغ حريتها السياسية والاجتماعية من كلّ مضمون حقيقي لها[٣٥].

وبذلك أخيراً نفهم كيف أصبحت قوانين العلم والتكنولوجيا فوق قوانين الدولة، وكيف فقدت هذه الأخيرة، ومن خلالها شعوبها أكثر فأكثر حريتها وسلطتها. فقد الزمان، أمام المجتمع الاستهلاكي والآني (La Société de consommation et de l'instantané)... خاصة لدى الإنسان الغربي، أبعاده التي كانت تمكّنه من التجذّر في الماضي، ومن التموقع في الحاضر، ومن التطلع إلى المستقبل. هكذا غرق هذا الأخير في تلك الأزمات العقلية والنفسية والأخلاقية.. والوجودية المزمنة..

ـ ٦ ـ

في مثل هذه الأجواء تصاعدت الأصوليات المختلفة، الدينية منها والسياسية، والاقتصادية منها، والاجتماعية، الثقافية منها والعرقية، في العديد من البلدان، المتقدمة منها والمتخلفة على حدّ سواء[٣٦]، وفيها تصاعدت كذلك ممارستها التعصبية والإرهابية.. والإقصائية..

بذلك أدركت الإنسانية، أخيراً، خاصة تلك التي لها تقاليد عريقة في الحرية

---

(٣٢) Francis Fukuyama, *La Fin de l'histoire et le dernier homme* (Paris: Gallimard, 1992).

(٣٣) Samuel P. Huntington, «The Clash of Civilisations,» *Foreign Affairs* (September-October 1993).

(٣٤) Thérèse Delpech, *L'Ensauvagement, Essai sur le retour de la barbarie au XXI^{ème} siècle* (Paris: Grasset, 2005).

(٣٥) *Le Monde diplomatique* (octobre 2005).

(٣٦) نشير هنا، على سبيل المثال إلى تصاعد تيار المسيحية المتطرفة في أمريكا والمرتبطة بالدوائر الصهيونية. والمعادية علناً للعرب ولقضاياهم. وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

والعلم. . «أن الأصعب بالنسبة إلى الإنسان ليس التحرر، بل المعرفة التي تمكّنه من أن يكون دوماً حراً»[٣٧]، وهي المعرفة التي ليست شيئاً آخر، وكما سبق أن أشرنا، سوى ما نسميه بالحكمة. . أو الفلسفة.

كما أدركت الإنسانية كذلك وبالتالي، أنه «قد آن الأوان لكشف مخاطر وخداع أسطورة العلمانية (Le Mythe scientiste) وتحطيم دائرتها التمركزية، وذلك من خلال التذكير بأن العلوم الاجتماعية، هي وحدها القادرة على الذهاب إلى ما بعد الحدود التجريبية. . بهدف فهم الوقائع الاجتماعية والتاريخية التي يعترف عندها كلّ تفسير عامي بحدوده»[٣٨].

بمثل هذه المقاربات الجديدة لِكُلّ من الحرية ومن العلم. . والفلسفة، استطاعت الإنسانية المتقدمة اليوم، تحويل جزء كبير من تلك الهزّات والسلبيات السياسية والعلمية والتكنولوجية والوجودية. . . الخ (التي بدت وكأنها قد سارت بِكُلّ من الحرية. . ومن العلم، إلى الفوضى والدمار، وبالفلسفة إلى العدمية (Le Nihilisme). . وإلى التواري (خاصة بعد اختفاء العديد من مذاهبها، الماركسية والفرويدية والبنيوية والوجودية. . ومن رجالاتها)، إلى عودة جديدة. . لِكُلّ من الحرية، ومن العلم، ومن الفلسفة، لمختلف مجالات الحياة الإنسانية، وإلى توطد العلاقات في ما بينها من جديد، وبمثلها كذلك يمكنها اليوم ترجيح كفة «الأمر المطلق» الكانطي على العدمية النيتشوية.

ذلك ما يؤكّده على أيّ حال، الاهتمام المتزايد، والجديد، بالفلسفة السياسية، خاصة من طرف الجامعات والمعاهد المختلفة، ومن طرف العديد من المؤتمرات الفلسفية المحلية والجهوية والعالمية[٣٩]، التي اتخذت كمواضع رئيسيّة لها، «الفلسفة والديمقراطية». . . «والفلسفة والتعددية السياسية والثقافية». . . «والفلسفة وحقوق الإنسان». . . «والفلسفة والتسامح». . . «والفلسفة والسلام». وذلك ما يؤكّده اليوم أيضاً توجّه العديد من الشعوب، الغربية، وغيرها من

---

(٣٧) André Gide, *L'Immoraliste*, col. folio (Paris: Mercure de France, 1976), p. 15.

(٣٨) G. Habermas, «Les Problème épistémologiques des Sciences Humaines,» dans: Hans Georg Gadamer, *Le Problème de la conscience historique*, éd. établie par Pierre Fruchon, traces écrites (Paris: Ed. du Seuil, 1996).

(٣٩) نذكر من بين هذه المؤتمرات مؤتمر بلنسية (إسبانيا) ١٩٩٧، حول الفلسفة والسياسة، والمؤتمر الثامن والعشرين للجمعيات الفلسفية الناطقة باللغة الفرنسية، جامعة بولونيا ـ إيطاليا، ٢٠٠٠ حول الفلسفة والسلام، ومؤتمر الفلسفة ونقد السياسة، اليونسكو، تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٥.

الشعوب الأخرى، خاصة تلك التي لها تقاليد ديمقراطية، إلى التخلّي عن الديمقراطية التمثيلية.. نحو الديمقراطية المباشرة.. ونحو مزاياها بالنسبة إلى الديمقراطية الأولى.

وذلك ما تؤكده كذلك أخيراً، مطالبة العديد من القائمين على تلك الثورات العلمية المختلفة للساسة الوطنيين.. وللمؤسسات الدولية كذلك (الأمم المتحدة)، وللفلاسفة.. بالتدخل العاجل.. لإضفاء طابع أخلاقي على نتائج ثوراتهم تلك.. وهو الطابع الذي تعدّ الفلسفة المعنية الأولى به[٤٠].

ـ ٧ ـ

نلاحظ هنا أن هذه العودة، الجديدة والمجدّدة، من طرف الشعوب المتقدمة للربط بين كلّ من العلم والفلسفة، تجري في وقت ما تزال فيه بلدان من العالم الثالث، ومن ضمنها معظم البلدان العربية والإسلامية، تتهافت على كلّ ما تحمله تلك الثورات العلمية والتكنولوجية، دون جهد يذكر، من طرفها، لا للإسهام فيها، بل لتجاوز سلبياتها فقط.

كما إنَّ العديد من تلك البلدان ما يزال متوقفاً كذلك، عند مجرد الترديد والنقل، وليس التجسيد أو التكييف، للمفاهيم السياسية والفلسفية الغربية مع واقعها، وهي المفاهيم التي يعمل الغرب اليوم على تجاوزها كذلك نحو مفاهيم أحدث وأكثر تعبيراً عن واقعه السياسي والثقافي والاجتماعي والعلمي المتجدّد.

نعود إلى هذه العودة الغربية، للفلسفة خاصة، لنتساءل عن مدى قدرتها على التمكين لهذه الأخيرة من مواصلة مهمتها التحريرية تلك للإنسان والإنسانية عامة.. وسط هذه التحديات غير المسبوقة... لِكُلّ من سلطة السياسة.. وسلطة العلم.. وسلطة العولمة، وبأي شرط أو شروط؟

للإجابة عن مثل هذا التساؤل، وغيره، نقول انطلاقاً من تلك الحقيقة التي تؤكد «بأنه لا فلسفة حقيقية، وفاعلة، إلا تلك القادرة على تمكين... الإنسان من معايشتها... هنا والآن» (Hic et Nunc)[٤١]... إن الفلسفة قادرة على القيام

---

(٤٠) انظر: «الإعلان العالمي بشأن الجينوم البشري وحقوق الإنسان» الصادر عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) (١٩٩٧).

(٤١) Maurice Merleau-Ponty, *Eloge de la philosophie et autres essais*, idées; 75 (Paris: Gallimard, 1965), p. 17.

بمثل تلك المهمة التحريرية للإنسانية من جديد، إذا ما عرفت كيف تجدد مضمونها... وأطروحاتها... ومفاهيمها وأهدافها... وصولاً إلى تفاعل إيجابي مع الواقع الإنساني الجديد والمتجدّد... ومع تحولاته المتسارعة تسارع تواري الكثير من الحقائق العلمية والسياسية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية والفلسفية التي كان يظن أنّها نهائية ومطلقة.

من هنا فإن تجديد الفلسفة لنفسها ولمضمونها... ولمناهجها وأهدافها.. إنما يعني، خاصة بالنسبة إلى الغرب الأوروبي..، من بين ما يعني، طرح مفاهيم ومناهج وحلولاً ومعاني وقيماً جديدة.. قادرة على الاستجابة الإيجابية للواقع الإنساني الجديد، وصولاً، لا إلى تأويله فحسب، بل إلى توجيهه كذلك وجهة أكثر إنسانية[٤٢]..

كما إنَّ تجديد الفلسفة لنفسها، يعني من بين ما يعني، التخلّي عن المنهج السقراطي المتمثل في البحث عن الحقيقة المطلقة.. والمثالية من خلال التأمل والحوار النظريين (اللذين لا علاقة كبيرة... تذكر لهما بالواقع الإنساني اليوم... وبالتحولات العالمية.. التكنولوجية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية والدينية المعقّدة والمتسارعة، التي تميّز بداية هذه الألفية الثالثة)، وصولاً إلى الإسهام، من جديد، ومن خلال العمل على التغلغل أكثر في وعي الجماهير، في بناء مثل تلك الإنسانية الأكثر إنسانية من كلّ الإنسانيات التي سبقتها[٤٣]..

بمثل هذا التجديد وغيره يمكن للفلسفة أن تشق، بالتالي أمام كلّ أبناء الإنسانية طرقاً ومسالك جديدة[٤٤] نحو التحرر والحرية، السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية.. والثقافية، على حدّ سواء، وهذا دون تخلّ في الوقت نفسه عن روحها المتمثلة في توجيه المسار والمصير الإنسانيين نحو غاياتهما المثلى، وهذا دون أن تتحول إلى خادمة للسياسة وللعلم، أو إلى عائق أمام تقدّمها كذلك.

فهل تستطيع مثل هذه الفلسفة الجديدة والمنشودة التوفيق اليوم بين العلم

---

(٤٢) *La Philosophie et l'émancipation de l'humanité* (publication de l'UNESCO) (2004), p. 5.

(٤٣) Edgar Morin: *Pour Sortir du XX^ème Siècle*, points essais (Paris: Seuil, 1991), et *Le Paradigme perdu, la nature humaine* (Paris: Seuil, 1973).

(٤٤) *La Philosophie et l'émancipation de l'humanité* (2004).

وأخلاقيته الضرورية. . . بين «بروميثوس» (Prométhée) «وأورفيوس» (Orphée). . وصولاً إلى تجسيد ذلك الحلم الأفلاطوني الهادف إلى علم في خدمة الإنسانية. . كلّ الإنسانية. . . وليس إلى إنسانية في خدمة العلم. . والهادف إلى سياسة في خدمة الحرية. . وليس إلى حرية في خدمة السياسة؟

إننا نعتقد أن المستقبل وحده كفيل بالإجابة عن مثل هذه الأسئلة وغيرها. . .

ـ ٨ ـ

نعود إلى عالمنا العربي الإسلامي ـ الذي لم يصل بعد إلى مثل ذلك التقدّم السياسي والعلمي والفكري الذي يعيشه الغرب اليوم ـ لنقول إنّه إذا كانت تلك هي مهام وهموم الفلسفة في العالم الغربي والأوروبي، فإن مهام وهموم المشتغلين بالفلسفة، ولا أقول الفلاسفة العرب (الذين لم يعرف هذا العالم واحداً منهم منذ ابن خلدون)[٤٥]، تظل متمثلة في النهوض بالنهضة العربية الإسلامية، وصولاً إلى تحقيق أهدافها التي ما تزال، منذ القرن التاسع عشر، هي نفس أهداف هذا العالم في القرن الحادي والعشرين. . وهي تلك المتمثلة في التمكين لمواطنيه من الحرية، السياسية منها والفكرية على حدّ سواء، وفي التحرر السياسي والاجتماعي. . وفي العقلانية. وفي تكريس ثقافة الحوار والنقد. . . والديمقراطية. . . وصولاً إلى اجتهاد قادر على تجديد الفكر الديني. . . والعلمي العربي، وعلى ترسيخ روح البحث. . . والإبداع. . في مختلف المجالات.

وذلك لا يتحقق، فيما نعتقد، إلا من خلال فلسفة عربية نقدية، للإنسان العربي، ولواقعه، وصولاً إلى تمكينه من مثل تلك الحرية، ومن مثل ذلك التقدّم الشامل والمتكامل، المتماشي مع معطيات حضارته[٤٦] من جهة، ومع الواقع العالمي الجديد والمتجدّد من جهة أخرى.

بمثل هذه الفلسفة يمكن للعرب وللمسلمين، الذين لم يحسنوا، لا فقط، توظيف مبادئ الإسلام في الحرية والكرامة الإنسانية والعدالة لتحقيق حرية مجتمعاتهم، بل لم يحسنوا كذلك توظيف نقد ابن تيمية، القائم على التجربة. . للمنطق الأرسطي، للخروج، بمنهج فكري وعلمي جديد، مثلما فعل بيكون (Bacon)

---

(٤٥) هذا ما ذهب إليه المرحوم الدكتور نجيب محمود وغيره من العديد من المفكرين العرب.

(٤٦) نشير هنا إلى أن الصين الشعبية مثلاً، تفكّر في إعطاء «المنتخب» أو «المنتخبة»، البالغ من العمر أربعين سنة، صوتين بدلاً من صوت واحد في أي انتخابات.

وغيره، مثلما لم يحسنوا توظيف شكّ الغزالي، للخروج به من دهاليز التصوّف الذي انتهى صاحبه به إليها، عكس ما فعله ديكارت، بشكّه المفتعل، كما لم يحسنوا أخيراً، وليس آخراً، توظيف النظرية الاجتماعية الخلدونية في مقاربة علمية وعملية للمجتمع العربي، مثلما فعل أوغست كونت وغيره بالنسبة إلى المجتمعات الغربية الأوروبية.

بذلك لم يتخلّف العرب والمسلمون فحسب عن تقدّم الإنسانية، ممثلاً بصورة خاصة في الثورتين العلميتين العالميتين، اللتين عرفهما الغرب منذ القرن الثامن عشر (البخارية والكهربائية)، بل إنّهم يوشكون أن يتخلّفوا اليوم عن الثورة الرقمية كذلك (La Révolution numérique)[٤٧].

لِكُلّ ذلك ولغيره، فإن العرب مطالبون اليوم أكثر من أي وقت مضى، بإبداع ثقافة وفلسفة نقديتين جديدتين وقادرتين على مقاربة موضوعية للإنسان العربي.. ولحاضره.. ولماضيه كذلك، وصولاً إلى إعادة تحققه التاريخي.. وذلك من خلال ثورتي الوحدة والتوحيد، العقل والنقل، العلم والعمل.. الكفيلين وحدهم بتحديث[٤٨] مقاربتهم لذاتهم ولتراثهم... وبتأصيل تفاعلهم لا مع الحداثة[٤٩].. فحسب... بل مع ما بعد الحداثة التي تشكّل السمة الأساسية للقرن الحادي والعشرين.

---

(٤٧) البخاري حمانة، «التنمية والبحث العلمي في المغرب العربي،» **حوليات جامعة وهران**، العدد ٣ (١٩٩٦).

(٤٨) خليل أحمد خليل، **مستقبل الفلسفة العربية** (بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ١٩٨١)، ص ٣٣٦.

(٤٩) Hammana Boukhari, «Se réinventer Soi-même, table ronde avec J. Berques et autres, à l'occasion du 24ème congrès International de sociologie, Alger, mars-avril 1972,» *La République* (Oran): 31/3/1972, et 1/4/1972.